

دمعة مألوفة من النجف على الرافعي

فقد البيان الرفيع

للأستاذ حسين مروة

وفي سبيل الفصحى الكريمة لغة القرآن الكريم، وفي سبيل
البيان الرفيع اللهجة، العلى النعمة، التبيل المعنى والقصد
والإداء. وإتنا لنشعر بالآلم يشيع في أحشاء الصدر أن رزئت
دولة الأدب والبيان العربي هذه الرزية بفقد علم خفاق من
أعلامها لم يطل به عهد الجهاد في سبيلها، ونكسته يد القدر
قبل أن يؤدي رسالته العالية، وإن هي إلا الرسالة التي تنتظرها
الروح العربية الناشطة من عقال الخنوع والاستعباد، والنهضة
الاسلامية الطالعة اليوم من كل فج وواد؛ بل هي الرسالة التي
تتحرق الانسانية كلها شوقاً إلى سلسلها العذب وخرتها العلوية
الخالدة؛ فلقد كان الرافعي الراحل كيئناً أدياً شامخ السمك
رفعت يد العناية في هذا الجيل ليثبت فيه عقب الفصاحة العربية
التي أسنت في آنية الزمن حتى كادت تستحيل على أسلات
الأقلام الناشئة المتأدبة في هذا العصر ربحاً غريبة ماتكاد
تقبن فيها نفحة العروبة أو عذوبة الضاد، أو شمائل الأجداد.
ولقد كان الرافعي الراحل كذلك كلمة إسلامية جامعة تلخص
بالدعوة الصارمة الصارخة الصادقة إلى فضائل الإسلام في
زمن كادت تنقلص فيه عن هذه الأرض الواسعة ظلال
الفضيلة وخلائق الخير ومثل الانسانية العليا. ولقد كان - إلى
هذا - فكراً تدفق في مطارحه أشعة الحقائق الاسلامية،
وقلباً يطفح بفياض الايمان بعبقريه هذا الدين الحنيف،
فكان من أجل هذا وذاك أنطق ناطق في التعبير عن
الاشراق الإلهي، الذي يطفو على وجه هذه الشريعة
السمحة الغراء في كل قضية من قضاياها التشريعية أو الروحية
العبادية الخالصة؛ وكان من أجل هذين أيضاً أروع بارع
في تفسير النبوة، على ما يريد الله منها في بعث الرسل إلى
الخلق وبث النبوات في الكون؛ وكان أقوم لسان في حكاية
« فلسفة الاسلام » على وجهها الذي ينبغي أن ندين الله به.
هذا هو الرافعي في أدبه من الوجهه الروحية كما فهمته
في جملة ما قرأت له من كتب ومقالات؛ ولا سيما هذه
المقالات التي كان يكتبها « للرسالة » في المناسبات الاسلامية
التي جرت (الرسالة) على الاعتداد بها، وعقد الفصول حولها،
وتخصيص بعض الأعداد لها؛ ولكن المصيبة في أمر الرجل
أن الجيل الناشئ يتجافى عن أدبه، وينقبض عنه انقباضه

إتنا - علم الله - لنشعر بالتياغ حزاز في قرارة النفس
ان لم تؤآتنا الفرصة للجهر برأينا في أدب المغفور له الأستاذ
مصطفى صادق الرافعي إلا في هذه الساعة الرهيبة إذ تفجؤنا
أنباء وادي النيل بنعي الرجل راحلا إلى دار الله الباقية، ملقياً
عن نفسه هذا العبء الذي كانت تضطلع به في سبيل الله،

يطرب للبلائكة. ورجاء ان ينزل من مستواه قليلاً حتى يفهمه
الجمهور. وهو قد سبق يعترف للرافعي بالسمو وإن كان يأخذ عليه
غلوه فيه في بعض الأحيان... ولكن للرافعي عذره من قوة جناحيه
وقد كانا يحملانه إلى جوه الذي فيه سر عبقرياته...

ويخيل إلى أنه كان يكتب كما يتنفس... كما عبر واصف بلاغة
جعفر بن يحيى البرمكي « وأنه لم يكن يقصد إلى الإغراب وإنما هو
عفو الخاطر. على أن تلاحق السعي من قلبه في « الرسالة » قد خدمه
أجل خدمة، وبه استطاع أن يخترع ذلك اللون الجديد من أدب
البعث فيما يشبه القصة

حاولت أن أرتبه بكلمات شفاقة طائفة تليق بروحه وبيانه
فإنه لا يلبق به أن يرثي بهذا الكلام الجسماني... وحاولت أن
أصنع ربشاً يرفعني إلى السماء التي كان يأخذ من كواكبها نور قلبه،
فأعددت جو الذكري وأحرقته البخور واستجمعت اطراف اللوثة،
ولكن كثافة النفس وخفوت الطبع قعدا في فاجزأت بوصف عجزى...
سأقرأ في لباس التاريخ وروح الذكري بعد أن مات
وصار كلمة

وسأضع أذن على قبره دائماً لأسمع نداء قلبه بهذه « العقدة
الروحية » التي دعا إليها في مقالته « في وحى الروح »...
وسأجعل من شعله روحه شمعى...
ومن وحى قلبه غاسولاً لحوبتي:
ومن أناشيده موسيقى همتي...

جعل الله ميراثه للخلود، وجهاده للنصر، وروحه إلى الجنة.

عبد المنعم فهمي

« نزيل بغداد »

الهازل اللاهى السادر في هزله ولهوه ، إذا ما جتته بالامر الجدد ولوحت له بشأن من الحق . ولعل كثيراً من المؤمنين بعظمة الرافعى من هذه الناحية ما كانوا يستطيعون الجهر بايمانهم هذا خشية أن يرميهم جمهرة من الناس لها شأنها في هذا الجيل بهذه الرمية التي اتخذت سبيلاً إلى غل الأفكار عن البوح بما تفكر فيه ، هذه هي ما يسمونها « الرجعية » كما اتخذت غير هذه الكلمة سبيلاً إلى ذلك عند جمهرة أخرى من الناس لها شأنها كذلك ، تلك هي ما يسميها الجامدون « هرطقة » أو « كفرًا » ، أو « عصرية » ... ؛ والويل لنا من هاتين الفئتين ...

أما رأي في أدب الرافعى الذى فصل الموت بين عالمنا هذا وبينه في عالم الآخرة — أما رأي في أدب الرجل من الوجهة الفنية ، فهو رأى كوته لنفسى منذ بدأت « الرسالة » ، تنشر له أدبه ، وقد كان قبل ذلك يشرف على الناس من كوة ضيقة ؛ وكان يتلهى في الأدب تلهياً ، وكان يعث فيه عبثاً ؛ وكانت الفصاحة اللفظية كل همه فيما ينشئ من مقالات أو كتب أدبية ، وكانت الصناعة الظاهرة والزينة والبرج كل ما يطمح إليه . وقد كنت أرغب عنه يومئذ كما يرغب عنه اليوم كثير من ناشئة المتأدبين وقرآء الأدب ؛ وقد انقطعت عن قراءته من أجل ذلك زماناً ؛ ثم قامت في مصر مجلة « الرسالة » ، وأقبلنا عليها في كل دار من ديار العروبة ، وكانت لي رغبة حينئذ في أن أجدد عهدي بالرافعى ، وقد جاءت هذه المجلة الجديدة به إلى حظيرتها فأقبلت عليه بعد موقف قصير ترددت فيه بين عقل مستطلع ونفس تطلب اللذة السهلة الميسورة ؛ وما طال عهدي معه في هذا الدور حتى أصلحت رأيي فيه ، وكونت لي هذا الرأى في أدبه من الوجهة الفنية ... هذا الرأى الذى قلت في مستهل الحديث أننى أشعر بالتباع حزاز في قرارة النفس أن لم أجهر به إلا في هذه الفرصة الالئمة لإذرحل الرجل إلى دار الخلود الحق

ورأى هذا في أدب الرافعى هو أن الفصاحة العربية الخالصة وإن كانت أولى مطامحه حين يجلس إلى كتابة المقالة ، ولكنه يأتى الإياه كله أن يضع جملته الفصيحة المشرفة قبل

أن ينحت لها المعنى الدقيق العالى . وأشهد أنه ينحت هذا المعنى من قلب الحياة أحياناً ، وقد يستأسره بلباقة من أرحب أجواء الخيال الشعرى الصافى ؛ فإذا امتلك عنانه وصار قيد قريحته الحصبة كساه هذه الأجنحة الطاووسية الأخاذة ، ونفحه بريح طيبة من نفس العروبة الشذى الأفيج . وإذا كان في بعض ما يقرأ له الناس ما يسمونه تعقيداً فليس هو — في رأيي — بتعقيد ؛ ولكن هذا الجهاد الفكرى الذى يلقي نفسه في غمراته كي يقتلع المعنى من قلب الحياة ، أو يستأسر الصورة الجميلة من جو الخيال الشعرى ، ثم هذا الترفع الذى يطلبه في الكسوة ، اللفظية ، وهذه البفحة العذبة التى يقصدها في مهاجها من الأدب العربى القديم ؛ كل هذه مجتمعة تعمل في إنتاجه هذا العمل الذى يخيل للقارىء البعيد عن روحه أنه تعقيد . ولو كان الصبر والجلد بما يسره الله لنا في طبيعتنا واستعملنا هذا الصبر والجلد في مرافقة الرافعى قليلاً لأنست به أذواقنا الفنية وأرواحنا ، ولأفدنا من فصاحته العالية الشيء الثمين العالى ؛ ولكن مصيبة الرجل في هذا الجيل كما قلت لك هي مصيبة الجاد بالهازل ، مصيبة من يطلب الحق بمن لا يطلب إلا موارد اللهو الميسور الرخيص . ومن الحق أن نقول — آخر الأمر — إن مسألة ما يحمل الرجل من ثقافة أبناء الجيل الحاضر هي الأخرى من جملة العوامل على ضيعته فيهم ، وذهابه عن دنياهم قبل أن يقيدوا من رسالته ما هم في أشد الحاجة إليه . ولعل هذا الجهد العظيم الذى يبجده حين يكتب فيخيل لقراءه أنه يقصد إلى التعقيد — لعل هذا يرجع إلى قلة بضاعته من الثقافة الحديثة . ولعل من آثار هذا الأمر ما نرى من عنايته في إخراج الجمل قوية دون أن يعنى ، أو دون أن يستطيع العناية ، بوحدة المقالة وجعل الموضوع وحدة كاملة متناسكة .

وبعد فإن الرافعى الراحل هو — في عقيدتي — ببيان أدبى شامخ ينهار قبل أن يصل إلى أهدافه السامية . رحمه الله رحمة واسعة ، وعوض الأدب العربى خير العوض عن هذه الخسارة الجسيمة .